منهج الإمام البخاري في علم الحديث

للدكتور : يوسف الكتاني

لقد قسم « اندريه لالاند » مؤرخ المنهج التجريبي علم المناهج العامة الى اقسام اربعــة :

1) المنهــج الاستقرائــي .
2) المنهــج الاستنباطــي .
3) المنهــج التكويني الاستردادي .
4) المنهــج الجــدلــي .

اما المنهج الاستقرائي فقد كان طريق الحضارة الحديثة ومبدعهــا وميزتها ، عليه سار علماؤها فأبدعوا لنا الحياة العصرية بمخترعاتها ووسائل الحضارة فيها غير ان العلماء المسلمين توصلوا قبل اوربا بقرون طويلــة الى جميع عناصر هذا المنهج وسبقوا الى ابتكاره وانشائه ، وكذلك كـان شانهم مع المنهج الاستنباطي ، فقد سبقوا اليه وعرفوه قبل الاوربييــن عصور النهضة فيها ، ولكنهم عرفوه باسم آخر وهــو ما اسمــوه بالمنهج القياسي ، غير انهم هاجموا هذا المنهج واعتبروه عقيما لا يؤدي الى نفع ، ولا يصل الى نتيجــة .

وقد كان موقفهم مغايرا مع المنهج الاستردادي ، الذي اقامــوه على اسس علمية صحيحة ودقيقة ، فيما يعرف بعلم مصطلح الحديث .

ان طرق تحقيق الحديث رواية ودراية كما عرفه المسلمون وابدعوه هي منهج البحث التاريخي الحديث كما عرفه فلمنج وسنيوبوس ولانجلو ، وقد سبق المسلمون وتوصلوا الى كل ما توصل اليه علماء مناهج البحث

التاريخي من نقد النصوص الداخلي والخارجي ، كما عرفوا طرق التحليل والتركيب التاريخية وكذا فحص الوثائق ومنهج المقارنة ، والتقسيم والتصنيف وهو ما عرف عند علماء الطبقات والرجال كالتاج السبكي وابن خلدون والسخاوي وسواهم .

لقد كان ابن خلدون في القرن الثامن الهجري عالم المنهج التاريخي الذي استخدم المنهج الاستقرائي بعبقرية نادرة وبراعة فائقة ، حيث فسر الظواهر العريضة التي شاهدها ، تفسيرا يرتكز على التحليل والتركيب ، مستخدما قياس الغائب على الشاهد ، ومستقرئا الحوادث العارضة في المشاهدة للتوصل الى أحكام عامة ، مما جعل عمله الباهر في نطاق التاريخ ، يساوي عمل فقهاء الاشاعرة ، وعلماء اصول الفقه ؛ وكذلك الامر بالنسبة للمنهج الجدلي نجد المسلمين كانوا ، السابقين اليه والمبتكرين له نجد أصوله في كتب اداب البحث والمناظرة والجدل ، نجده عندهم منهجا كاملا يماثله ويضارعه المنهج الجدلي الحديث كما هو نفسه ؛ وكما يطبق في المجامع والاكاديميات العلمية الحديثة اليوم (1) .

لقد سبق علماء المسلمين ومفكروهم الى ذلك كله وكانوا رواد العبقرية الانسانية في الفكر والمعرفة والابتكار مما جعل نهضة العصور الحديثة تقوم على افكارهم ومعارفهم ونظرياتهم ، وهو ما حمل المنصفين من علماء أروبا ومفكريها على الاعتراف بفضلهم وريادتهم واعلانه بمزيد الاعجاب والثناء ، اننا نذكر هنا في مقدمة هؤلاء العلماء الافذاذ جميعا رائدا عظيما واماما كبيرا هو الامام البخاري رحمه الله ؛ فقد وضع لنفسه وللعلم وللناس منهجا علميا فريدا وأسلوبا مبتكرا في علم الحديث لم يسبق اليه ولم يلحق فيه وكان فيه أستاذ الاساتذة وطبيب الحديث في علله كما وصفه تلميذه ومعاصره الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري (2) .

لقد شمل منهج البخاري طريقة اخذ الحديث ، وكتابته ؛ وجمعه ، واختيار الشيوخ ورجال الاسناد .

اما طريقة اخذ الحديث فقد اتخذ البخاري لنفسه منهجا لاختيار شيوخه ، وفي بحثه وتاليفه فلم يكن يأخذ الا عن الثقات ؛ وفي ذلك يقول :

(1) مناهج البحث عند مفكري الاسلام للدكتور النشار ص : 67 — 271 .
(2) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي 2 / 9 .

« كتبت عن الف ثقة من العلماء وزيادة وليس عندي حديث لا أذكر اسناده » (3) وهو من أجل ذلك كان اهتمامه البالغ بمعرفة حال الرواة وكيفية تلقيهم للحديث حتى يطمئن الى اخذه عنهم ، قال : « لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء ، كنت اذا كتبت عن رجل ، سألته عن اسمه وكنيته ونسبه ، وحمل الحديث ان كان الرجل فهما ، فان لم يكن، سألته ان يخرج الى أصله ونسخته ، أما الآخرون فلا يبالون بما يكتبون » (4) .

لقد كان منهجه في رجال الاسناد وشيوخه ودرجة من يأخذ عنهم ، انه لا يأخذ الا عن الثبت الراجح الثقة عنده وعند المحدثين كما كان متحريا الى اقصى درجات التحري حتى نشأ عن هذا التحري فيمن يأخذ عنهم ، تركه الاخذ عن كل من فيه نظر مهما كانت كثرة حديثه ، وقد قال في ذلك جوابا عن خبر حديث :

« يا ابا فلان اتراني ادلس ؟ تركت انا عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر ، وتركت مثله او اكثر لغيره فيه نظر » (5) .

ولذلك كان يبالغ ويتشدد في التحري فيمن يروى عنهم بما لم يسبق اليه ، فلا يكتب الاعن الورع الذي يقول الايمان قول وعمل ، يقول البخاري في ذلك :

« ان الدين قول وعمل وان القرءان كلام الله ، لقد لقيت اكثر من الف رجل من اهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان ، وما رايت واحدا منهم يختلف في هذه الاشياء » (6) .

---

(3) مقدمة شرح البخاري للنووي 1 / 8 .

(4) تاريخ بغداد 2 / 25 .
سير اعلام النبلاء 8 / 238 .

(5) تاريخ بغداد 2 / 25 .

(6) الكمال في اسماء الرجال للمقدسي 1 / 82 .
سير اعلام النبلاء 2 / 8 .

وقد التزم الامام البخاري هذا التحري والتثبت في شيوخه ورجال اسناده وعمن روى عنهم ، في كل رواياته ومصنفاته ، وخاصة الجامع الصحيح والتاريخ الكبير ، ولذلك لا نجد تعارضا بين هذا التحري وبين ما روى أنه كان يحفظ أحاديث غير صحيحة ، كما يحفظ اسماء الضعفاء من الرجال ، والا فكيف يصفي ثروته الحديثية ويتجنب الضعفاء ؟

فلنستمع اليه يحدد منهجه الفريد في تلقي الحديث وحمله ، ويحدد طبقات الرواة ورجال الاسناد الذين كان يأخذ عنهم ، والدين ينبغي للمحدث ان يروي عنهم ، يقول البخاري :

« لا يكون المحدث كاملا حتى يكتب عمن هو فوقه ، وعمن هو مثله ، وعمن هو دونه » (7) .

ولذلك كان منهج البخاري ان يحدث مرة بالاسناد نزلا ومرة عاليا ، حتى يفهم ان الاسناد العالي حذف منه ، او ان الاسناد النازل قد زيد فيه، وقد علق على ذلك أبو طاهر بقوله : « لئلا يظن من لا معرفة له اذا حدث البخاري (8) — فقد حدث البخاري في مواضع كثيرة عن رجل عن مالك .

وحدث في موضع عن عبد الله بن محمد السندي عن معاوية بن عمرو عن اسحاق الفزاري عن ما لك وحدث في مواضع عن رجل عن الثوري وحدث في موضع عن ثلاثة عنه .

فحدث عن احمد بن عمر عن ابي النصر عبيد الله الاشجعي عن الثوري .

واعجب من هذا كله ان عبد الله بن المبارك ، اصغر من مالك وسفيان وشعبة وقد تأخرت وفاته ، كما حدث البخاري عن جماعة من اصحابه عنه، وحدث عن جماعة من اصحابه عنه وتأخرت وفاتهم ، ثم حدث عن سعيد بن مروان عن محمد بن عبد العزيز بن ابي زرعة عن ابي صالح سلمويه عن عبد الله بن المبارك .

(7) هدى الساري ص : 48 .
(8) مقدمة النووي ص : 9 .

اما منهجه فى كتابة الحديث ، فقد تميز في كتابة الحديث والتأليف فيه بمزايا كثيرة ، منها المكاني ومنها الزماني ، فقد توخى في تأليف جامعه الصحيح الروية والاناة ، رغم حفظه الكبير واتساع مداركه ومعرفته العميقة للرجال ، حيث صنفه في ستة عشر عاما ، وكان يعد نفسه لكل حديث بالغسل والصلاة وفي ذلك يقول البخاري :

(اخرجت هذا الكتاب يعني الجامع الصحيح من نحو ستمائة الف حديث ، وصنفته في ستة عشر سنة ، وجعلته حجة بيني وبين الله (9) .

وقال ايضا :

« ما وضعت في الصحيح حديثا الا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين » .

اما مكان تصنيفه فبين الحرمين الشريفين فقد صنفه في المسجد الحرام ، ووضع تراجمه بين قبر النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره وفي ذلك يقول :

« صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام وما ادخلت فيه حديثا الا بعد ما استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته » (10) .

ان طول زمان تأليفه يؤكد تحري البخاري وطول بحثه وكبير استيعابه، كما ان اختيار الحرمين الشريفين يدل على تقدير المسؤولية في اختيار الصحيح وانتقائه مما يوحي جلال المهمة التي تصدى لها البخاري وكان يقدرها حق قدرها فقد بلغ من حرصه وعنايته انه اعاد النظر فيه مرات ، لكثرة ما تعهده بالتهذيب والتنقيح قبل ان يخرجه للناس ، ولذلك صنفه ثلاث مرات (11) .

---

(9) طبقات الشافعية للسبكي 1 / 7 .
الوفيات 1 / 650 .
التهذيب لابن حجر 9 / 495 .
شرح البخاري للنووي .
(10) هدى الساري ص : 11 .
(11) طبقات الشافعية 2 / 7 .

منهج البخاري في رواية الصحيح وشروطه فيه :

يمكن استيعاب منهج الامام البخاري في الحديث الصحيح وشروطه فيــه من امريــن :

1 – من الاسم الذي سمى به الجامع الصحيح .

2 – ومن الاستقــراء مــن تصرفــه .

فهو قد سماه كتاب الجامع الصحيح المسند المختصــر من امــور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، وهو الجامع بمعنى انه لم يختص بصنف دون صنف ، ولذلك أورد فيه الاحكام والقضايا والاخبــار المحضة والآداب والرقاق ،وهو (الصحيح) أي انه ليس فيه شيء ضعيف عنده لقوله : « ما ادخلت في الجامع الا ما صح » وهو « المسند » اي انه خرج فيه الاحاديث المتصلة الاسناد ببعض الصحابة عن النبــي صلى الله عليه وسلم سواء من قوله او فعله او تقريره (12) .

وهكذا يمكن حصر شروط البخاري في صحة الحديث فيما يلي :

ان يكــون الحديــث متصــلا .

وان يكــون رواتــه عــدولا .

وان يكونوا متصفين بالضبــط .

وان يخلو الحديث من العلة اي ليس فيه علة قادحة،والا يكون شاذا بأن يخالف رواية من هو اكثر عددا منه واشد ضبطا ، وقد أوضح البخــاري منهجه في الاتصال بدقة متناهية لا تجدها عند غيره ، حيــث اشترط في المعنعن شرطين وهما اللقاء والمعاصرة ، وفي ذلك يقول : « الاتصــال عندهم ان يعبر كل من الرواة في روايته عن شيخه ، بصيغة صريحة فــي السماع منه ، كسمعت وحدثني واخبرني ، او ظاهرة كعن وان فلانا قال،اي ان يكون الراوي ، قد ثبت له لقاء من حدث عنه ولو مرة واحد،مع اشتراط ان يكون ثقة ، فاذا ثبت عنه ذلك ، حمات عنه عنعنته على السماع ، وعلــة

(12) النكــت (مختصر الفتح) لابن حجــر .

ذلك انه ان لم يثبت لقاؤه له وانما كان معاصرا له ، احتمل ان تكون روايته عن طريق الارسال ، أما اذا حدث عن شيخه بما لم يسمعه منه كان مدلسا » ؛ وبذلك كان شرط البخاري في الاتصال اقوى وأتقن من غيره وخاصة مسلم وابن حنبل وغيرهما الذين اكتفوا بالمعاصرة دون اللقاء .

ان طريق ثبوت اللقاء عند البخاري تدور على التصريح بالسماع في الاسناد ، فاذا ثبت السماع عنده في موضع يحكم به في سائر المواضع ، ومن اجل ذلك ، كان البخاري يتثبت في الرجال الذين يخرج عنهم، ينتقي اكثرهم صحبة لشيخه ، واعرفهم بحديثه ، وان فعل فانما يخرج في المتابعات ، بشرط ان تقوم قرينة وان يكون ذلك مما ، ضبطه الراوي (13).

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخ في علوم الحديث من منهج البخاري:
« وجاء محمد بن اسماعيل البخاري امام المحدثين في عصره ، وخرج احاديث السنة على ابوابها في مسنده الصحيح ، بجميع الطرق التي للحجازيين والعراقيين والشاميين واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه ، كما روى عن أهل الري وواسط وخراسان ومرو وبلخ وهراة ونيسابوري وبخارى وغيرها ، بخلاف غيره الذين لم يرحلوا الى تلك البلاد»

وفي الجرح والتعديل كان للبخاري منهج دقيق واسلوب فريد ، كان فيه كثير من التحري والتثبت ، فاذا انكر السماع من راو كان يقول : « لم يثبت سماع فلان من فلان » ولا يقول ورعا « ان فلانا لم يسمع من فلان » كما اكد ذلك صاحب فيض الباري عن ابن حزم (14) .

كما كان اكثر ما يقول في الرجل المتروك او الساقط « سكتوا عنه» و « فيه نظر » أو « تركوه » .

وقل ان يقول : كذاب او وضاع بل يقول : كذبه فلان « او رماه فلان» يعني بالكذب .

وكان ابلغ تضعيفه للمجروح قوله « منكر الحديث » (15) .

---

(13) هدى الساري ص : 7 .
مقدمة الفيض ص : 35 .
(14) فيض الباري للكشميري .
(15) طبقات الشافعية 2 / 9 .

هذا ولم تقف ريادة البخاري ومنهجيته عند هذا الحد ، بل تجلت في مواضع كثيرة من صحيحه فى تراجمه ، وتقطيعه للحديث ، واختصاره، واعادته، ومكرراته ، وتجريد الصحيح مما ميزه عن غيره ، وسجل لـــه الافضليـــة والاسبقيـــة .

تراجـــم صحيـــح البخـــاري :

لقد صدق من قال : « ان فقه البخاري في تراجمه » ذلك ان تراجم الصحيح تعطي الصورة الواضحة والدليل القاطع ، على مقدرة البخـــاري وسعة عمله وقوة حفظه ودرجة تفوقه ، في فهم الكتاب والسنة واستنباط الاحكام منهما والاستدلال لابواب ارادها من الاصول والفـــروع والزهـــد والرقائق واستخراج فقه الحديث وما له صلة بالحديث المروي فيه فكان فيها كما قال عنه ابن حجر :

« استخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في ابواب الكتـــاب بحسب تناسبها واعتنى فيه بآيات الاحكام فانتزع منها الدلالات البعيـــدة وسلك في الاشارة الى تفسيرها السبل الوسيعة » (16) .

كما كان (فى تراجمه) سباق غايات وصاحب آيات فى وضع تراجم لم يسبق اليها ، ولم يستطع ان يحاكيه احد من المتأخرين ، فنبه على مسائل مظان الفقه من القرءان بل اقامها منه ودل على طرق التأنيس منه وبه يتضح ربط الفقه والحديث بالقرءان بعضه مع بعض فكانت تراجمه صورة حيـــة لاجتهاده وعبقريته ومنهجيته ، ولزيادة التوضيح نود امثلة مـــن تراجمـــه تدليلا على نبوغه وريادته وتفوقه وتمكنه وقـــوة استنباطـــه المعانـــي ؛ واستخراج لطائف فقه الحديث وتراجم الابواب الدالـــة على ما له صلـــة بالحديـــث المروي فيـــه .

لقد كان منهجه عجيبا وفريدا في تراجمه فقد يكون منها ما هو ظاهر والترجمة فيه دالة بالمطابقة لما ترجم له أي عنوان لما ترجم له كقولـــه : (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم علمه الكتاب) كما جـــاء فـــي الحديث المتصل عن ابن عباس قال : (ضمني رسول الله صلى الله عليـــه وسلم وقال اللهم علمه الكتاب) (17) .

---

(16) هـــدى الســـاري ص : 6 .
(17) شرح الكرماني للبخاري . كتـــاب العلـــم 2 / 47 ـ 49 .

وقد تكون الترجمة تعبيرا للمعنى المراد من كلمة فى الحديث مثاله . (باب الاغتباط فى العلم والحكمة ، وقال عمر تفقهوا قبل ان تسودوا) كما جاء فى الحديث المسند عن عبد الله بن مسعود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنين : رجل اتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ، ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » (18) .

فبين فى هذه الترجمة ان المراد بالحسد هو الغبطة لا الحسد ، وبذلك كانت ترجمته هنا بيانا وتاويلا لمعنى الحديث .

وقد يترجم بآية وياتي بعدها بالحديث مثاله من كتاب العلم (باب قول الله تعالى) « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

وساق السند المتصل عن علقمة عن عبد الله قل : بينما انا امشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يجيء فيه بشيء تكرهونه فقال بعضهم لنسألنه فقال رجل منهم فقال : يا ابا القاسم ما الروح ؟ فسكت فقلت ، انه يوحى اليه نقمت فلما انجلى عنه فقال : « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتوا من العلم الا قليلا » قال الاعمش هكذا في قراءتنا ، يريد البخاري ان يفيد اثبات الحكم بالمصدرين الكريمين الكتاب والسنة (19) الى غير ذلك من المعاني الدقيقة في تراجم البخاري التي يحفل بها صحيحه والتي خصها ولي الله الدهلوي بكتاب سماه « شرح تراجم ابواب صحيح البخاري » .

منهجه في اعادة الحديث واختصاره وتقطيه :

وهذا مظهر آخر من منهجية البخاري وبراعته وعبقريته استعاض به عن العدد العديد من الاحاديث التي يحفظها على كثرتها ، حتى يجمع هذه الثروة الحديثية الشاملة ، والا احتاج الى مجلدات حتى يوفي أبواب صحيحه

---

(18) المصدر السابق 2 / 41 – 43 .
(19) المصدر السابق 2 / 149 – 150 .

وكتبه ، مراعاة لشروطه في الصحيح والتي الزم نفسه بها وهو يدون الحديث الصحيح في جامعه ، متحريا خالصه لذاته وحسب شروطه ، وفي ذلك يقول الكشميري :

« ان المصنف لما شدد في شروط الاحاديث قلت خيرة الحديث في كتابه ، ولما اراد ان يتمسك منها على جملة ابواب الفقه اضطر الى التكرار والتوسع في وجوه الاستدلال وذلك من كمال براعته ، ومن لا دراية له بغوامضه ولا ذوق له في علومه يتعجب من صحيحه ولا يدري ان التوسع فيه من اجل تضييقه على نفسه في مادة الاحاديث ، فيستدل بالايماءات ويكتفي بالايماضات » (20) .

وكان ذلك مصداق ما قيل :

اعيا فحول العلم حل رموز ما — أبداه في الابواب من اسرار

فاذا صح ان البخاري اعاد الحديث الواحد وكرره في صحيحه اكثر من مرة ، فانما يلجأ الى ذلك لمرامي وامور تتعلق بالاسناد او بالمتن او بهما معا على ان الصحيح في الامر انه لا تكرار ، بل هو اسلوب اتخذه الامام البخاري لما كان يرومه ويقصده من ترجمة أو معنى او استدلال اذ ليس هناك حديث ورد في صحيحه أكثر من مرة كما هو دائما وانما يختلف من حيث راويه أو اختصاره ، او الاستدلال به كاملا ، ولنورد على ذلك امثلة لتوضيح مقاصده في هذا الباب :

من ذلك احاديث يرويها بعض الرواة تامة ويرويها بعضهم مختصره ، فيوردها هو كما جاءت تحريا للدقة وازالة للشبهة عن ناقلها. وليصل المنقطع منها على أصله فيقوي بعضها بعضا ويذكر الروايتين ، مثال ذلك ما ورده في (باب ليبلغ الشاهد الغائب) رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولكنه أسنده في كتاب الحج في باب الخطبة ايام منى عن علي بن عبد الله عن يحيى بن سعيد عن فضيل بن غزوان عن عكرمة عن ابن عباس رضي

(20) فيض الباري ص : 4 .

الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس اي يوم هذا ، قالوا يوم حرام الى ان قال : اللهم هل بلغت » . قال ابن عباس : « فو الذي نفسي بيده انها لوصيته الى امته فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (21) .

ومن ذلك انه كان يخرج الحديث عن صحابي،ويورده عن صحابي آخر، وقصده ان يخرج به عن حد التفرد والغرابة ، وكذلك يفعل في أهل الطبقة التالية للصحابة ، فمن بعدهم الى مشايخه كما هو واضح في المتابعات ، واورد في هذا الباب : حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدثني الليث ، قال : حدثني سعيد بن ابي شريح انه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة ائذن لي أيها الامير احدثك قولا قام به النبي صلى الله عليه وسلم . الخ . الحديث ذكره مطولا ثم ذكره في كتاب الحج باب فضل الحرم باسناد مغاير ومتن مختصر قال :

« حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا جرير بن عبد الحميد عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها » (22) .

وليس في هذا الحديث الجزء الذي بوب له في الباب السابق . ويرمي البخاري من ذلك الى ان ترك بعض المتن او السند اختصارا لا يضر اطلاقا وانما يزيل الشبهة عن الناقل .

ومن ذلك احاديث تعارض فيها الوصل والارسال ورجح عنده الوصل واورد الارسال للتنبيه على انه لا تأثير له ، لانه عنده في الموصول ، ومنها احاديث زاد فيها بعض الرواة رجلا في الاسناد ونقصها بعضهم فيوردها البخاري على الوجهين ، اذ صح عنده ان الراوي سمعه من شيخ حدثه به عن آخر ثم لقي الآخر فحدثه به فكان يرويه على الوجهين .

---

(21) شرح الكرماني للبخاري 8 / 201 .
(22) شرح الكرماني للبخاري 8 / 107 .

وكذلك يورد البخاري الحديث لتسمية راو او التنبيه على زيادة في الرواية فيراعي تقديم الحديث الاولـــى .

ومن أجل ذلك يتضح ان الامام البخاري لم يكن يورد الحديث الواحد فى صحيحه اكثر من مرة الا لفائدة ولغاية من ترجمته ، قال ابن حجر : «وبهذا يعلم ان البخاري لا يعيد الا هادفا للفائدة ، حتى لو لم تظهر لاعادته فائدة ، من جهة الاسناد ، ولا من جهة المتن ، لكانت الفائدة لاعادته من اجل مغايرة الحكم الذي تشتمل عليه الترجمة الثانية ، موجبا انه لا يعد مكررا بلا فائدة، وهي تعدد الطرق ، فضلا عن ابراز الاحكام المتعددة » (23) .

وما الطف ما قاله في هذا المعنى ابن الديبع :

قالـوا لمسلـم فضـــل ... قلت البخــاري اعلـــى
قالـوا المكـرر فيـــه ... قلـت المكـرر احلـــى

لقد كان هدف البخاري دائما استخراج المسائل واستنباط الفوائد والنزول الى أعماق الحديث ، والتقاط درره .

فقد روى حديث بريره عن عائشة اكثر من اثنين وعشريـن مـرة لاستخراج احكام وقواعد جديدة منه في كل مرة يرويه .

وروى حديث جابر اكثر من عشرين مرة ، قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة فابطأ بي جملي واعيا . . . ـ الحديث ، وروى حديث عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترى طعاما من يهودي الى اجـل ورهنه درعا من حديد في احد عشر موضعا ، وعقد له أبوابا وتراجم .

وروى قصة موسى والخضر في اكثر من عشرة مواضـع واخـرج حديث كعب بن مالك بن علقمة عن غزوة تبوك في اكثر من عشرة مواضع .

وروى حديث أسماء في كسوف الشمس وخطبته صلى الله عليـه وسلـم في عشرة مواضع .

(23) الامام البخاري محدثا وفقيها للدكتور الحسيني ص : 203 .

ونجد أطول سند فيه سند اسماعيل بن ادريس من باب ياجوج وهو تساعـــــي .

وأعلى سند فيه الثلاثيات وقد بلغت ثلاثة وعشرين على ما ذهب اليه الشبيهي في شرحه للجامع الصحيح (24) .

واكثر سند ذكرا للصحابة سند ابي سليمان في باب رزق الحكام من كتاب الاحكام ، فان فيه اربعة من الصحابة السائب ومن ذكر بعده .
واكثر أبوابه احاديث باب ذكر الملائكة .

واطول حديث فيه حديث عمرة الحديبية المذكور في كتاب الصلـــح
واكثر من روى عنه من الصحابة ابو هريرة رضي الله عنه .

اثر منهج البخاري في المنهج العلمي الحديث :

لقد استخلصنا وبينا بايجاز ، منهج الامام البخاري في كتابة الحديث وتنقيه واخذه ونقد الرواة وتمحص النقل ما جعله ينفرد باستاذيته وريادته في هذا الميدان الى اليوم ، وما جعل الذين جاءوا بعده سواء من الشرق او الغرب يقتبسون من منهجه ويسيرون على هديه ويأتمون برايه ، وهذا ما يلاحظه الباحث المتعمق المدقق في سهولة ويسر من مجـــرد المقارنـــة البسيطة بين المنهج الاوروبي الحديث ومنهج البخاري والمحدثين مـــن بعده ، كما يلاحظ الفرق الكبير والافضلية المطلقة للمنهج الاسلامي .

لقد بدات تراود علماء ومفكري أوروبا بعد البخاري ومنهجه بألف عام، فكرة تحديد منهج تاريخي حديث ، واحيطت الفكرة بهالـــة من التقديـــر والاكبار ، وتلقاها المحدثون بمزيد من الافتتان واخذوا الامر على انه حدث جديد ، وكانه من صنع ايديهم وعبقرية مفكريهم ، وما دروا ان الامر بأكمله، مستمد ومقتبس من منهج البخاري والمحدثين .

لقد قام المنهج الحديث على نوعين من التحليل : خارجي وداخلي ، والتحليل الخارجي يتكون من مرحلتين رئيسيتين هما : ـ نقد الوثائق ـ والتحقق من شخصية صاحب الوثيقة .

(24) الفجر الساطع على الصحيح الجامع ، المجلد الاول ص : 13 وما بعدهـا .

اما التحليل الداخلي فيقوم على نوعين : ايجابي وسلبي ، أي تحليل داخلي ايجابي . وتحليل داخلي سلبي .

ولكن اذا نظرنا الى هذا المنهج الحديث ودرسنا تفضيلاته بتدقيق فاننا نجده لا يعدو منهج المحدثين عرضا وموضوعا .

اما عرضا وبالنسبة للرواة وهو ما سمي بالتحليل الداخلي ، فقد أوجزه علماء الحديث في كلمات يسيرة شاملة حيث اشترطوا في الراوي ان يكون : مسلما ، ثقة ، عدلا ضابطا ، غير متبع لبدعة يدعو اليها . واما موضوعا فهذه الكلمات الموجزة تشمل على ما قيل في الرواة وتفوقها باشتراط الاسلام الذي هو اصل المقاييس كما يضفي عليها الثقة .

وكذلك بالنسبة لطرق التلقي فأين ما شرطه أصحاب المنهج الحديث في توثيق الوثائق من الاعتماد على الحفريات والاوراق المتناثرة التي لا يعترف بها المحدثون ، وقد تكون قديمة من عهد سحيق فأين هذا من صيغ الاداء كالسماع والعرض والمناولة .

كما تزداد دهشة الباحث المحقق حينما يقول أصحاب المنهج الاروبي الحديث لا بد من الشك حتى يتحقق الباحث من صدق جميع تفاصيل الوثيقة أو كذبها وهذا يحتاج الى تحليل الاصول التاريخية ، ثم بعد ذلك يكون الاستدراك الذي يخفف من شأن المسألة لقولهم ان العادة والدربة تخففان من مشقة الحل ويكسبان المؤرخ نوعا من الحدس الذي يعينه على اصابة مواطن الريبة دون عناء .

وهنا نرجع الى منهج البخاري لنلاحظ قوله في هذا الباب وهو اسبق وادق ، يقول : « كتبت عن الف ثقة من العلماء وزيادة وليس عندي حديث لا اذكر اسناده » (25) . وأين ذلك من منهج البخاري في كتابة الحديث اذ يقول : « لم تكن كتابتي كما كتب هؤلاء ، كنت اذا كتبت عن رجل أسأله عن اسمه وكنيته ونسبه وحمل الحديث ان كان رجلا فهما ، فان لم يكن سألته ان يخرج الى أصله ونسخته ؛ اما الآخرون فلا يبالون بما يكتبون وكيف يكتبون » .

---

(25) تاريخ بغداد 2 / 19 .
مقدمة شرح البخاري للنووي 1 / 8 .

ومن أجل ذلك كان البخاري يختلف مع المنهج الحديث في تحكيم الحدس اذ لم يكن يرضى هذا المنهج أساسا للبحث العلمي .

أما التركيب التاريخي بمعنى ان يبيح المؤرخ لنفسه استعمال خياله لسد فجوات التاريخ شريطة أن يكون مقيدا بنتائج التحليل ؛ فذلك ما لم يرضه المحدثون لانفسهم ولا يوافقون على الحرية التي يعطيها الباحثون لانفسهم ، فى تطبيق منهجهم بينهم وبين انفسهم ، مستخرجين معلوماتهم التاريخية ؛ وما عنيهم الا انه يخبروك بمنهجهم لاتباعه وتطبيقه دون أن يلزم الباحث نفسه بتوقيفك على خطوات بحثه ومنهجه .

فالمحدث يعرض عليك المتن برواته ، حتى تستوثق به او تبحث عنه ، فتراه موصولا في مكان آخر وعند ثقات آخرين ، فضلا عن قرب زمن التدوين من عصر النبي صلى الله عليه وسلم الى البخاري ومن بعده مع مراعاة أهمية الحديث وقداسته في الدين والدنيا ؛ ومقاييسهم الدقيقة مما بهر العلماء المحدثين وفي مقدمتهم مرغليوث الذي قال في وضوح : « ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم » ؛ وهكذا لم يسلم المنهج الاوروبي الحديث من الخلط في الدراسة والتحقيق بين التاريخ وبين فن القصص ، فقد كانوا يجمعون الوثائق والروايات كيفما اتفق (26) مما يحتفظ لمنهج الامام البخاري والمحدثين ، بالاصالة والدقة والتمحيص في النقل ، نجد ذلك مفصلا عند ابن خلدون الذي حدد قواعد البحث التاريخي والدراسات التاريخية وقواعدها ، بما يفوق ما هو عند أصحاب المنهج الحديث بكثير ، رغم فارق الزمان واتساع الدراسات التاريخية وتطور فن التحقيق .

وقد شهد المنصفون من علماء اروبا ومفكريها ، بفضل المسلمين في مجال العلم والفكر والبحث ، وتاثيرهم الاساسي فيما توصل اليه المعاصرون من علماء اروبا ومفكريها معترفين بفضل علماء الاسلام ومفكريه؛ يقول (بريفول) : « انه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الاوروبي، لم يكن للثقافة الاسلامية تأثير اساسي عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الاسلامية في العلم الاوروبي ، هو تأثيرها في العلم الطبيعي والروح العلمي

(26) المنطلق الحديث ومناهج البحث للدكتور محمد قاسم ص : 328 .

وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره »(27)
ثم يزيد موضحا قوله :

«... ان ما يدين به علمنا لعلم العرب،ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة ، ان العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا ، انه يدين لها بوجوده وقد كان العلم كما راينا ــ عالم ما قبل العلم ــ ان علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر ايجابية لم تجد لها مكانا ملائما في الثقافة اليونانية ، فقد نوع اليونانيون المذاهب وعمموا الاحكام ، ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوصفية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني ، ان ما ندعوه بالعلم ظهر في أوروبا كنتيجة لروح جديد في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء طريق التجربة والملاحظة والقياس ، وهذه الروح وتلك المناهج ادخلها العرب الى العالم الاوروبي » (28) .

ثم يختم بريفول قائلا :

« ... لم يكن روجر بيكون في الحقيقة الا واحدا من رسل العلم والمنهج الاسلامي الى أوروبا المسيحية ، ولم يكف عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريقة الوحيدة للمعرفة الحق لمعاصريه ، ان مصدر الحضارة الاوروبية الحق هو منهج العرب التجريبي في عصر بيكون ، فقد تعلمه الناس في أوروبا تحدوهم اليه رغبة ملحة » (29) .

ان المنهج الاسلامي العلمي اغنى واقوى مما دونه المؤرخون واعترف به الباحثون ، وما زال غنيا بكرا يحتاج الى مزيد من البحث والاستقصاء والتعمق في الدراسة والتحقيق ، ومن اجل ذلك خص هذا الكتاب صحيح البخاري باجماع العلماء على انه قد بلغ اقصى درجات الصحة والدقة والتحري في جمع الحديث الصحيح الثابت والاحتياط الذي يبلغ اليه اجتهاد المجتهد دائما عن النقلة والرواة ، وان البخاري راعي فيه ادق

---

(27) ابداع الانسانية لبريفول ص : 160 .
(28) المصدر السابق ص : 196 .
(29) المصدر السابق ص : 196 .

الشروط التي عرفت في هذا المجال والتزم فيه التزامات لم تعرف عن اي مؤلف في هذا الموضوع كما اكد ذلك العلامة أبو الحسن الندوي (30).

وحتى كان المقدسي يصف الرجل الذي يخرج عنه البخاري . « هذا جاز القنطرة » ولذلك لم يكن بدعا ان تتفق الامة جمعاء بعلمائها وافرادها على صحة هذا الكتاب ومنهجيته وفضله على سائر كتب الحديث على الاطلاق وبقائه واستمراره .

وقد وفقني الله للبحث فى هذا المجال ، والتخصص فى هذا الميدان ، فاقبلت على هذا التراث العظيم ووقفت حياتي وجهدي على التفقه فيه ودراسته ، فأرخت لمدرسة الامام البخاري في المغرب ، ووضعت حولها اطروحتي في الدكتوراه التي تشرفت بالفوز بها .

لقد كان شأن الجامع الصحيح عظيما في المغرب ، فقد تعلق به المغاربة واحبوه واهتموا به واقبلوا عليه ، منذ وصوله اليهم فعنوا به اعظم عناية واحلوه بعد كتاب الله المقام السامي والمكان العالي ، وقد شملت عنايتهم به واهتمامهم ، مظاهر حياتهم السياسية والفكرية والاجتماعية وفى سائر المجالات ، فقد حفظوه ودرسوه وكتبوا حوله الشروح والتعاليق ، واختصروه وبحثوا في مشكلاته والفاظه ووضعوا له التكملات وبحثوا تراجمه وعرفوا برجاله واسناده ، وانشأوا حوله الافتتاحيات والختمات ، ونظموا القصائد والاشعار حول ترجمة صاحبه وفضائله ومزايا صحيحه وكتبه ، الى غير ذلك من مئات الكتب والمؤلفات التي وضعها المغاربة حول كتاب الجامع الصحيح .

وبذلك وحده تدحض دعاوي باطلة واقاويل ملفقة تزعم للناس ان المغاربة تركوا الاصول وتعلقوا بالفروع ، فلو نشر ما كتب المغاربة حول صحيح البخاري وحده ، لتاكد الناس ان المغاربة كانوا دوما فى المقدمة في هذا الميدان والسباقين في هذا المجال ، وان ما كتبوه والفوه حول الجامع الصحيح قد يفوق بكثير ما وضعه غيرهم .

(30) الجامع الصحيح للامام البخاري لابي الحسن الندوي .

وهذا هو ما دعانا الى الاهتمام بهذا التراث واختياره موضوعا لاطروحتنا ومجالا لدراستنا ، رغم ما يحيط بذلك من مصاعب وما يكتنف البحث من مشاق خاصة ، وان المراجع والوثائق في هذا الباب عزيزة نفيسة .

وجدير بالذكر ان من بين الوثائق التي عثرنا عليها ، وثائق لم تنشر من قبل ، ووثائق اخرى غير معروفة ، وهذا ما أهلنا ان نقدم ولاول مرة ـ على حد علمنا ـ أول شروح البخاري على الاطلاق وهو كتاب « اعلام السنن » لابي سليمان احمد الخطابي البستي المتوفى سنة 388 هـ وهو خير ما نعتز به ونحن نستقبل قرنا جديدا من مسيرة ديننا الخالد .

وقد لاحظنا ان ثاني شروح البخاري كتبه المغاربة ممثلين في ابي جعفر احمد بن نصر الداودي المتوفى سنة 402 هـ . ولكن البحث والتنقيب قد طال بنا دون ان نعثر على هذا الشرح . ونأمل في مستقبل الايام بفضل الجهود المكثفة أن نوفق للعثور عليه وتحقيقه ونشره .

كما استطعنا ان نعثر ايضا عند علمائنا بالصحراء المسترجعة على تراث حديثي عظيم وخاصة حول هذا الكتاب ، فقد وجدنا اعظم شروح البخاري في هذا العصر وهو كتاب « النهر الجاري في صحيح البخاري » للشيخ محمد سالم المجلسي المتوفى 1302 هـ وهو في سبعة أسفار ضخام ، وقد عرفنا به وبصاحبه وسلطنا عليه بعض الاضواء عساها تبلغ المسؤولين عن الثقافة والفكر في بلادنا ، فيمدوا اليه يد العناية والرعاية ليخرج من الظلمات الى النور . وكذلك عثرنا فيما عثرنا عليه من النفائس المغربية كتاب « الفجر الساطع على الصحيح الجامع » في ست مجلدات للشيخ المحدث خطيب الحرم الادريسي بزرهون ومفتيها ابي عبد الله محمد الفضيل بن الفاطمي الشبيهي المتوفى سنة 1318 هـ وهو من انفس ما كتبه المتأخرون من المالكية على الصحيح مطلقا .

وقد قادنا البحث والتنقيب للعثور على الكثير من التراث العلمي المغربي في الحديث وحول البخاري ، بعضه مما ينفرد به المغاربة ويمتازون ، كافتتاحيات البخاري ، وبعضه شاركوا فيه غيرهم ونبغوا فيه كالختمات وادبها الى غير ذلك من الاسانيد العالمية والاجازات السامية التي تنشر لاول مرة في اطروحتنا من موضوعات ووثائق وتراث .

لقد استهدفت هذه الدراسة العلمية تقديم موسوعة حديثية تشتمل على تبويب واستيعاب جل ما كتبه المغاربة حول الصحيح ، وما أبدعوا من تراث قل نظيره عند غيرهم ؛ مما يقارب المائتي مؤلف كانت في أغلبها مغمورة ان لم تكن غير معروفة في بطون المكتبات وثنايا المجامع والمخطوطات ، ـ ان خير ما نعتز به في دراستنا حول مدرسة الامام البخاري ومنهجه الحديثي ، هي انها جاءت كاسهام في الفكر الحديثي الاسلامي في المغرب ؛ تدعمه ، وتزكيه في نهاية قرن هجري ؛ وبداية آخر ، لتؤكد استمرارية العطاء ، الاسلامي وخاصة في مغربنا العزيز ، راجين الله ان يساعد مجهودنا على تطور الدراسات الحديثية وتركيزها وبدفع الدارسين والباحثين للعمل على احيائها وبعثها والعناية بها والى المزيد من العطاء العظيم الذي ابدعته اجيالنا الماضية من هذا التراث المغربي الذي يحملنا على الاعتزاز به .

